رواد ورائدات
(٢)

أُم كُلْثوم

معجزة الغناء العربي

تأليف : محمد جبريل
رسوم : محمد قطب



دار البستاني للنشر والتوزيع

رواد ورائدات
(٣)

أم كُلْثوم

معجزة الغناء العربي

تأليف : محمد جبريل
رسوم : محمد قطب

دار البستاني للنشر والتوزيع
تأسست عام ١٩٠٠

ميدان محطة العاصمة عام ١٩٢٣:

- الفتاةُ أُم كُلْثوم إبراهيم تَنْزِلُ المَيْدانَ، يَصْحَبها شيخ مُعَمّمَ هو أبو فريد.

كانَت الحَياة تَخْتلفُ عن الحياة في قرية طَماى الزَهايرة التى وُلِدت أُم كُلْثوم، ونشَأت، فيها، وعَن الحَياةِ في الريفِ المِصْرى آنذاك، وتَخْتَلِفُ أيضاً عَن الحَياةِ في المَدينةِ قَبْلَ أعْوام قَليلة.

- كانَت طَماى الزَهايرة تَضُمُ حَوالي ٢٨٠ بَيتاً، كُلُها مِن الطوبِ اللَبن، لا يرتفعُ أيّ بَيْت عَن طابقين، وعَدَدُ سُكّانها ١٦٦٥ شَخْصاً، أيّ بِمُتوسِّط ستَّة أشْخاص في كل بَيْت. ولَمْ يَكُن في القَريةِ كُلها غَيْر شارَع واحد يَتَّسِعُ - عَلى حَدِّ تَعْبير أُم كُلْثوم - لكارتَّة العُمْدة والكارتَّة عَرَبَة يَجُرها جَواد.

- أمّا في القاهرةِ، فَقَد كانَت السيارة تَحِلُّ مَكانَ العَرَبَة ذات الجَواد، والكَهْرباءُ تَدْخُلُ البيوتَ، والمياهُ النقيةُ تَصِلُ إلى أحْياءٍ جَديدةٍ، وبَدأت مِهْنَة السقّا تَضْمَحِل، وأصبحَ الترام وَسيلة مواصَلات رَئيسية، وحلَّت السيَّارة الخاصة والعامة - شَيئاً فَشيئاً - مَحَلَّ العَرَبَة والحصان، وبلَغَت سُرعَة السيارة ٤٠ ميلاً في الساعة، وصارَ الفونوغراف رَفيق الوِحْدَة، ثُم دَخَل الراديو حَياةَ الناس، وأزاحَ الراوي الشَعْبي - فيما بَعْد - وَحَلَّ موضِعه، وارتَدى عَددٌ كبيرٌ من الرجال - لأول مَرّة - المَلابسَ الإفرنجِيَّة، بَدَلاً من المَلابس البَلَدِيَّة، واخْتَفَت المِلاءة اللَف بالنِسبة للكَثير مِن النِساء، وكانَت ظاهِرةُ الخُروجِ عَلى القَديمِ تَمْتَدُ وتَتَسِع في كُل المَجالات.

كانَت مُنيرة المَهْديّة أَشْهَر المُطْربات. وكان مِن مُطربي الفَتْرة أيضاً فَتْحية أحمد ومَلَك وصالِح عَبْد الحي وبَمْبة كَشَّر وعبد اللَطيف البَنَّا.



لَمْ يكُن الطَريق إلى القاهرة سَهْلاً. بَدَأت أُم كُلْثوم حَياتَها الفَنيّة بالغناء في الأفْراحِ، في مُدُن وقُرَى الريف، وإنْشاد الابْتِهالات والتَواشيح في المُناسَبات الدينيّة المُخْتَلفة.

حينَ وَعَتْ الحَياة من حَولِها، تَنَبَّهَت إلى أن اسْمَها ليسَ مُتَداوَلاً في قَرْيَة طَمَاى، ولا في القُرَى المُجاورة. سَأَلَت أَبَاها، فَقَالَ لَها إنَّه كانَ يَقْرَأُ كتاباً عَن أَبْناء النَبي. وكَانَت زَوجَته حاملاً، وتَوَقَفَت عَيْنَاه على اسمِ ابْنَةِ النَبي أُم كُلْثوم، فَقَالَ بعَفَوِيّة: إذا أنْجَبْنا طِفْلَة فَسَنُسَميها أُم كُلْثوم.!

كانَت أُخْتها الكُبْرى "سيدة" تَكْبرها بِعَشْرِ سَنَوات. أمّا أخوها خالد، فَكان يَكْبرها بِسَنَة واحِدَة.

كان رأي أبيها – الشيخ إبراهيم – أنْ تظَلّ أم كُلْثوم في البَيْتِ، فلا تَذْهَب إلى الكُتَّاب، وهو ما كانَت تُعَانيه مُعْظَم الفتَيات في الريفِ المصْرى. لَكن أُم كُلْثوم أصرَّت علَى التَعلُّم، وتَنَقلَت بينَ أكْثَر من كُتَّابٍ – وَسيلة التَعْليم الأساسيّة في مَطالَع القَرْنِ العشْرين – وكَانَت تَقْطَعُ بَيْن البَيْتِ والكُتَّاب أكْثَر من ستَة كيلومتْرات، مَشْياً علَى قَدَمَيْها، كُل يوم.

ما حَوْلَها كان يَدْفَعها إلى الغناء. أبوها يُنْشدُ في المَوالدِ مَعْ بطانَته، ويَحرْصُ أن يُلَقِّن ابْنه خالد أُصول الأداء. وتُعْطي أُم كُلْثوم انْتباهها إلى الدُروسِ التي كان يُلقيها أبوها على أخيها، وتُرَددُ – بَيْنَها وبَيْن نَفْسها – ما يُرَددانه من تَوَاشيحٍ وأناشيدِ دينيةٍ.

ذاتَ يَوم، لاحَظَت الصَغيرة أُم كُلْثوم أن أخاها يَجدُ صُعوبة في تَرديدِ ما يُلَقنه لَه أبوها، فَعَرَضَت أن تُؤَدي ما أَخْفَقَ فيه خالد. فُوجئ الأَبُ – بَعْدَ أن طَالَ تَردُده في الإذْنِ لَها – أنَّه أمامَ صَوتٍ سَمَاوي جَميل. وتَساءَل بَيْنَه وبَيْنَ نَفْسه: هَلْ يَصْحَبها – بَدَلاً منْ خالد – إلى المَوالدِ وَحفَلات القُرى؟

أَجابَ علَى نَفْسه بالتَخَوّفِ منْ أن تَحُولَ تَقَاليدِ الريفِ – آنَذاك – دون أن تَقفَ أُم كُلْثوم علَى خَشَبَة المَسْرَح إلى جَانبِه. وأطالَ التَفْكيرَ قَبْلَ أن يَتَوصَّل إلى حَلٍ يَصلُ به صَوْت أُم كُلْثوم إلى الآذانِ التى تُحْسنُ تَذَوّق الطَرَب، ويُحافظُ – في الوقْت نَفْسه – على تَقاليدِ مُجْتَمَع الريف.

تَفَوّقَت الابْنَة علَى أخيها في الأَداء، فاسْتَغْنَى الأَبُ بِها عَنْه، وتَعَدَدَت المَوالد والحَفَلات والأَفْرَاح التى أنْشَدَت فيها، وأَلْقَت التَواشيح. سَارَت علَى قَدَميها، رَكَبَت الحمار، عَانَت قَسْوَة الطَبيعة. وَكانَت تَسيرُ – أَحْياناً – بِضْعَة كيلومتْرات منْ طَماى الزَهايرة إلى السنْبلاوين، ومنْها بالقطارِ إلى المَنْصورة، ثُم تَعْبُر النيل – في معَدِّية – منْ المَنْصورة إلى طَلْخا، وتَرْكَب قطاراً آخَر إلى نبروة، ثُم تَمْشي من نبروة إلى القَريَة التي يُقام فيها الحَفْل!



أرادَ الحَظ الحَسن أن يُكافئَ أُم كُلْثوم علَى صَوتِها السَماوي، وَأدَائها الجَميل، ومُعاناتها في التَنَقُل بَين القُرى والساحات، وإرادتها. استَدْعاها صاحِب العِزْبَة المُجاوِرَة عز الدين بِك يَكَن، لِتُغَني لَيْلَة الإسْراءِ والمِعْراجِ في قَصْرِه بِحُلوان.

مَيدان محَطَّة العاصِمَة بَعْدَ ثَلاثَة أعْوام :

عادَت أُم كُلْثوم إلى القاهِرة بِنّيَة الاسْتِقْرار فيها.

كَانَت قَد أمْضَت في قُدومِها الأوَّل لَيْلَة واحِدة، ثُم عادَت إلى الإنْشاد في المَوالِد والقُرى،

لَكِن القاهرة لَم تُغَادِر ذِهْنها، وداعَبها الطُّموح في أن تَعودَ إليها. استَقَلَّت القطار – ثانية – إلى القاهرة، وإن اعتُبِرَت زيارتها هى الأولَى. قَدمَت لتَنْفيذِ عَقْد وَقَّعه مَعْها مُتَعَهِّد الحفَلات الشيَخ مُحَمَد أبو زَيد لإحْيَاءِ حَفْل علَى مَسْرَحِ "تياترو بايلوت باسل".

في أثْنَاءِ وقوفها وأبيها وشَقيقها علَى محَطَّة قِطار السِنْبلاوين، الْتَقَى بِهم الشيَخ أبو العلا مُحَمد. لَمْ تَكُن قَد تَعرَّفَت إلى الشيَخِ مِنْ قَبل، وإن أَحَبَّت ما استَمَعَت إليه مِن أُغْنياته في فونوغراف عُمْدَة طَماى.

كان الشيَخ أبو العلا – والكَلام لأُم كُلْثوم – مِن أعْظَم الموسيقيين العَرَب، وكان غَزير العِلْم، رَقيق الشعُور، وقَد أَتَّم ما بَدأه الأَوَّلون، وحَافَظَ على التَقاليدِ الموسيقيةِ العَتيدة التي وَضَعَها الأساتذَة القُدَماء، وكان آخِر تلْكَ السلْسلة المَرْحوم عَبْده الحامولي – الذي تُوفي سنة ١٩٠١ – فاحتَّل الشيَخ أبو العلا مَكانه إلى أن تُوفي في ١٩٢٧م.

قالَت أُم كُلْثوم وهى تُصافِح الشيَخ أبو العلا:

– لَمْ أَكُن أُصدِّق أن صاحِب هذا الصوت يَعيشُ في دُنيانا !

ورَجَت أبَاها أن يَدْعو الرَجُل الذي أَحَبَّت صَوته إلى بَيْتِهم في طَماى. استَمَعَت أُم كُلْثوم إلى أبو العلا محمد، واستَمَعَ الرَجُل إلى صَوتِ أُم كُلْثوم. واتَجَه الشيَخ أبو العلا بالقولِ للشيخ إبْراهيم :

– أَثِقُ أن مُستَقْبَلَ أُم كُلْثوم لَنْ يَتَحقَق في طَماى. القَرْيَّة أضيَّق مِنْ أَن تَتَسعِ لِمَوهِبتها الهائلة!

تَكَرَّر نُزولها في محَطَة العاصِمة مَرَّات كَثيرة، قَبْلَ أن تأتي لِتَقْطُن في مَدينة حُلْمها.

كَانَت قَد عَرفَت مَبْنى مَحَطة السِكَّة الحَديد جَيداً، وعَرَفَت مَلامح المَيْدان، وأنَّه الطَريق إلى قَلْبِ المَدينَة.


محطة
السنبلاوين

أَصرَّ الشيخُ أبو العلا أن يُحقِّقَ وَعْدَه لأُم كُلْثوم بأَن تَفرْضُ مَوْهِبتها على المُجْتَمَعِ الفَنِّي في القاهرة.

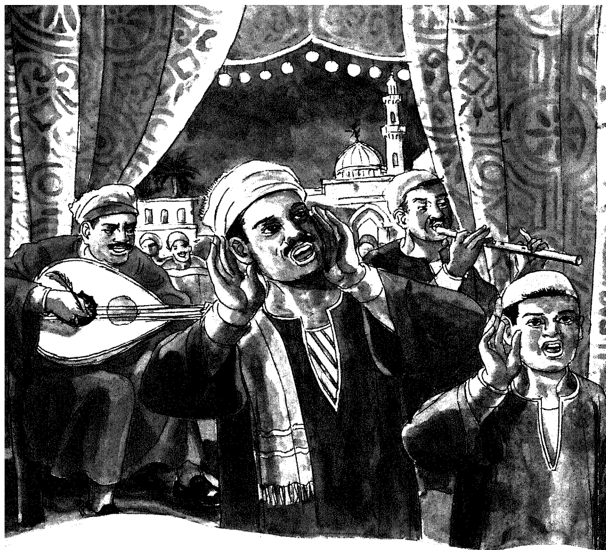
ظَلَّ يَصْحَبها إلى كُل الحفلات التي تُغَني فيها. علَّمَها كَيْفيّة النُطْق، وفَهْم مَعاني الكَلمات، وتَوافُق الأداء مَع اللَّحْن. اعْتَبَرت القُرآن الكَريم هو الدَعامة التي أقامَتَ فَوْقَها نُطْقها السلَيم للُغَة، وسُهولة تَطْويعها لَها. وتَعَلَّمَت من حفْظ القُرآن الكَريم سُرْعَة الحفْظ تَحْفَظُ المَقْطَع الأوَّل بمُجَرَّد سَماعه مَرَّة واحدة. تَسْتَعيد كَلمات الشيخ أبو العلا مُحمد "المُطْرب الذي لا يُجيد النُطْق الصَحيح، لا يَسْتَطيع الوُصولَ إلى قَلْب المُسْتَمع، وَيعْجَز عَن الإلْقَاء الفَنّي السلَيم".

وَقفَت أُم كُلْثوم عَلى المَسْرَح – في القاهرة – في مَلابس صَبّي عَرَبي: البالطو والكوفيّة والعُقال، منْ حَولها بطانَة من المَشايخ. وكان هَؤلاء المَشايخ هُمْ والد أُم كُلْثوم الشَيخ إبْراهيم، وأخوها الشَيخ خالد، وقَريب لَها اسْمه الشيخ صابر.

عَرَّفَها أبو العلا محمد بأحْمَد رامي، الشاعر الذي غَنَّت الكَثير من قَصائده. تَعَلَّمَت من رامي أوزان الشِّعْر، وكَيفية تَذوّق الشعْر، وفَهْم الكَلمات الغامضَة، وساعَدها عَلى قراءَة دَواوين كبار الشُعَراء مثْل ابْن الرومي والبُحْتُري والمُتَنبَّي والشَرِيف الرضي ومهْيار الدَيلَمي وغيرهم.

وتَعَرَّفَت أُم كُلْثوم إلى الكَثير منْ المُؤَلفين والمُلَّحنين الذين أُعْجَبوا بصَوتها، ونَصَحوها بضَرورة الاسْتقْرار في القاهرة.

أصْدَرَت لَها شَركَة أوديون أَرْبَعَة عَشرْ تَسْجيلاً، ما بَين ١٩٢٤ و ١٩٢٦، وجَميعها ذاتَ ألْحان عَصْرية، بمَعْنى أنَّها تُخَاطب أذْواق تلْك الفَتْرَة بفَنِّية مُتَطَوِّرَة عَلى مُسْتوى الكَلمات والألْحان والأداء.



وفي أثْناءِ نُزولها مَع أبيها الشَيخ إبراهيم وأخيها خالِد في فُنْدُقِ "جوردون هاوس" بشارعِ عِماد الدين، غَنَّت في العَديدِ مِن الحَفَلاتِ، واجْتَذَبَت آذانَ الحُضور وإعْجَابهم، ثُم غَنَّت عَلَى مسرَح دار التَمْثيل العَربي، ومسْرح الكَورسال..

ثُم انْتَقَلَت أُم كُلْثوم إلىّ بَيْتٍ بِشارِعِ قَولَة، ودَعَت باقي أفَراد أُسرتها ليُقيموا مَعْها، وتَحولّ البَيْت - أحْياناً - إلى صالون ثَقافي، يَتَردَد عَليه عَدد مِن كبار الشُعَراء والأُدَباء والموسيقيين. واستَغْنَت أم كُلْثوم عَن البِطانة، لتَحل - بَدَلاً مِنها - فِرْقَة موسيقية، وانتَقَلَت إلى الغِناء العَصْري، وكانَت "الطَقْطوقَة" أبْرَز مَلامحه.

أرادت أُم كُلْثوم أن تُعيد دِراسة الفَن علَى أُصولِه. تَعَلَّمَت العَزْفَ علَى العودِ، حتَى أجادته، ودَرَسَت وظائف الآلات الموسيقية الأُخْرى. ثُم كَوَّنَت فِرْقَة خاصة بها مِن أعْلام الموسيقيين في تِلْك الفَتْرَة..

لَم تَقِف أُم كُلْثوم إلى جانِب مُنيرة المَهْدية إلا بَعد مُعاناة، نَتيجة تَفْضيل الكَثيرين صَوْت المَهْدية الذي كان يُلَوِّن في نُطْقِ الكَلِمات، وَيبْتَعِد بِها عَنْ مَعَانيها.

الإذاعَةُ المِصْرية في ٢٧ يناير ١٩٣٥:

أَطَلَّت مِن شُرفَة شَقَتها الجَديدة الفاخِرة، بِعِمارة بِهْلَر في حَي الزَمالِك. سَبْع حُجرات، وثَلاثة حَمامات، وطبَّاخ يُعِّد الطَعام. كانَت انْتَقَلَت إليها مِن شَقَّة شارِع قَوْلَة بِحي عابدين.

تَأَمَلَّت البِنايات العالية، والأسْطُح، والخَلاء، والجُسور، والنِيل، والأشْجار علَى ضِفَتيه. إسْتعادَت حَياتها في طَماى، وجَوَلاتها في القُرى والمَوالد والساحات،





والجَماهير الهائلة التى أحبَّت صَوتها، وانْعَكَس حبُها عِندَما سَجَّلت أوَل أسطُوانة في القاهِرة، قَصيدة علَي الجارِم "ما لي فتنت بلحظك الفتاك. . وسلوت كل مليحة إلاك". حَقَّقَت أرْقاماً هائِلة في المَبيعات، دَفَعَت الشرَكة المُنْتِجة إلى التَعاقُدِ مَعْها لِطَبْعِ اسطوانات أُخْرى..

بالإضافَة إلى العَرَبيّة، كانَت قَد تَعلَّمَت الفرَنْسيّة جَيداً، وتَعَلَّمَت من الإنجليزية ما يُتيح لها الفَهْم والمُناقشة. حَاولَت أن تُلحّن لنَفْسها. ساعَدها على ذلك أنها دَرسَت الموسيقا جَيداً، لكنها تَوقفَت إيماناً منْها بأن الفَنَّانَ يَجبُ أن يَحْرص عَلى التَخصُص.

أدْرك كُل مَنْ تَعاملَ مَعْها منْ الشُعَراء والمُلَحنين أنَّها ليَسَت مُغَنّية، ليْسَت مُجَرَّد مُؤدِّية، لا تُرَدِّد ما يُلَحِّنه الموسيقي من كَلِمات، بصَرف النَظَر عَنْ مَكانَة الشاعر أو الموسيقار.

غَنَّت أُم كُلْثوم في الإذاعة المصْرِيةَ. كانَ صوتُها أولُ ما افْتَتَحَت به الإذاعة حَفَلاتها الخارجية، عندما نَقَلَت أُغْنية لَها من دار الأوبرا المصْرية.

مَع أَن أول فيلم مصري أُنْتِج في عام ١٩٢٩، تَبَعه العديد من الأفلام، ومنها أَفْلام غنائية للمُطْربة نادرة ومحمد عبد الوهاب ومُنيرة المَهْدية وبَديعة مَصَابني وغيرهم. مَع ذلك، فإنَ إلتفات أُم كُلْثوم للسينما لَمْ يَبْدأ إلاَ بَعدَ أَن عُرِضَ فيلم محمد عبد الوهاب "الوردة البيضاء".

بَدأت في ١٩٣٥ تَصوير فيلم "وداد" أول أفلامها الستّة. كَتَب أحمد رامي سيناريو الفيلم، عن قصة منْ تأليف أُم كُلْثوم نَفْسها، وقَام بَدوري البطُولة أمَامها أحمد علام ومنسي فهمي، ولقى الفيلم نجاحاً هائلاً، وصارَ أول الأفلام المصْرية التى عُرِضَت في مهْرَجان لندن السينمائي الدولي.

لَمْ تَكُن تَنْظُر إلى الأُجورِ التى تُطالِب بها، وتَحْصُل عليها، على أنَّها زيادة مادية تَحْصُل عليها، لكنَها كانَت تَنْظُر إلى الأمْرِ من زاوية المَكانَة التي يُعَبِّر عَنْها ما تَنَاله من أَجْرٍ. هى مُطربة كَبيرة. هى أَهَم المُطْربات. ومن حَقّها لذَلك أن تَتَقاضى أَعْلى الأُجور.



القاهرة عام ١٩٤٧:

هى الآن كوكَب الشرْق أم كُلْثوم. يكْتُب كلمات أُغْنياتها وقصائدها كبار الشُعَراء، ويُلَحِّن لَها كبار الموسيقيين، وتُشْرِفُ بِنَفْسِها – كَمَا كَتَبَ ذَلِكَ أَحْمَد رامي في مَجلَةٍ فَنّيةٍ – عَلى كُلِّ إعْداد للتَسْجيل.

أَظْهَرَ لَها زَكَرِّيا أَحْمَد ضَيْقَه من إصرارِها عَلى المُفاضلَة بيْنَ بِضْعَة أَلْحَان للأُغْنية الواحِدَة، فَتَخْتَار أَنْسَبها. أما رياض السُنباطي، فَقَد اَعْتَاد قَضَاء اليَوْم كُله دُون طَعَام أو شَرَاب، أو حَتَى مُكالَمات تليفونية، حَتَى يَنْتَهي مِنْ تَدْريبِها عَلى مقْطَع فِي اللَّحْنِ الواحِد، وربُما اسْتَغْرَقَ الأمْر – بِهَذِهِ الصُورَة – أَياماً وأسابيع، قَبْل أن تُوافق عَلى أداء الأُغْنية بالنَحوِ الذي يُرْضيها.

وكَانَت سَريعة الحفْظ، لَكنَها كَانَت تُطيلُ السمَاع والمُفَاضلَة والاخْتيار، قَبْلَ أن تَصْعَد إلى خَشَبَةِ المسْرَح لِتُغَني بالمُستوى المَطْلوب.

لَمْ تَعُد الفرقَة الموسيقيةَ تَقْتَصِرُ عَلى الكَمَانِ والعود والقانون والرِّق. أضافَت إليها العَديد مِنْ الآلاتِ المُوسيقية الحَديثَة، حَتى لا تَظَّل أَسيرة مُوسيقَى القَرْنِ التاسِع عَشْر، ولإحْداث التَلوين في النَغمَات.

كَتَبَت الصُحُف عَن الأربعينيات "عَصْر أُم كُلْثوم الذَهَبي. "انْضَمَّت إلى لَجْنَة الاسْتِماع في الإذاعَة. أَصْبَحَت – بَعْدَ فَتْرَة قَصيرة – رَئيساً للَجْنَة. وكَانَت تَعْتَزُ بأنه إذا لَمْ يَصِل أَعْضَاء اللَّجْنَة إلى قَرارٍ بِشَأنِ الأُغْنية التي يَخْتَلفون حَوْلَها، تَرَكوا لَهَا القَول الفَصْل. وأُخْتيرَت عُضواً في لِجانٍ حُكومية تَتَصِلُ أَنْشِطَتها بالفُنون. رَشَحَت نَفْسَها لرِئاسَة نِقابَة المِهَن الموسيقية للمَرَّة الأُولى في عام ١٩٤٥، وفَازَت بالمَنْصِب.



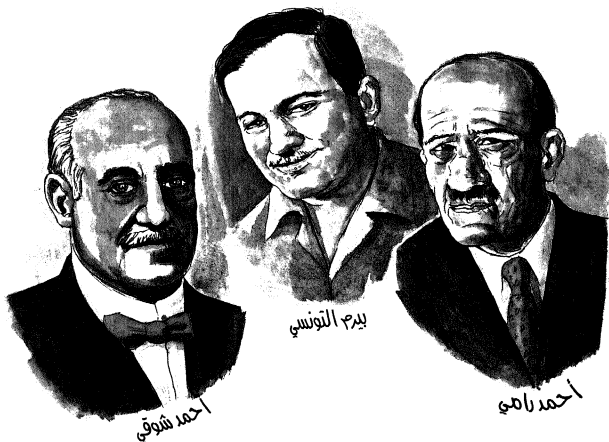
وحين أبْدَى بَعْض أَعْضَاء النِقابَة اعْتِراضه بدَعوى أن النِقابةَ تَضُمُ رِجَالاً، علَيْهم أن يَتولوا قيادتها، قَالَت أُم كُلْثوم في حَسْمٍ: "أنا أَيْضاً قادِرة عَلى تولّي قيادة النِقابة، وعِنْدي أَفْكار وحُلول لمُشْكِلات الفَنَّانين." وأَثْبَتَت جَدَارتها بِمَنْصِب النَقيب في السَنَوات التالية.

تَوَالَت الأَفْلام التى قَامَت بِبُطولتها: نَشيدُ الأَمَل (١٩٣٧)، دَنَانير (١٩٤٠)، عايدة (١٩٤٢) سَلامة (١٩٤٥)، فاطمة (١٩٤٧).

غَنَّت القَصائد لِكِبار الشُعَراء القُدامَى والمُعاصِرين. قَصَائد أحمد رامي ذَاتَ الحِسِّ الرومانسي والتَشْبيهات البَلاغية الجَميلة، وأُغْنيات بيْرَم التونسي المُسْتَمدَّة مِنْ قَلْبِ الحَياة الشَعْبيّة: "غَنىِّ لِى شوى شوى. . يا صباح الخير ياللى معانا. . الورد جميل. . أنا في انتظارك. . أهل الهوى. . الأولة في الغرام"، وغيرها. وَظَلَّ بيرَم وزَكَرِيا أحْمد وأُم كُلْثوم ثُلاثياً فَنياً عَلى مَدَى سَنَوات، ثُمّ قَلَّت أَلْحان زَكَريا ومحمد القَصَبْجي التى غَنَّتْها أُم كُلْثوم، بَيْنَما زَادت الأُغْنيات التى لَحنَّها رياض السُنباطي.



ثُم انْفَصَل الثُلاثي - بيرَم وَزكريّا وأُمْ كُلْثوم - لِخلافَات حَوْل الأمُور المادية في عامِ ١٩٤٧. اَعْتُبِرَت القَصائد التي قَدَمَتْها مِن تَأْلِيفِ أَحْمَد شَوقي وَتلْحين رياض السُنباطي، بِداية من عام ١٩٤٦، اعْتُبِرَت تِلْك القَصائد تَجْديداً فيَ التُراث الموسيقي العَرَبي ظَلّ مُسْتَمراً حتى أَوَاسط الخَمْسينيات: "سلوا قلبى، سلوا كؤوس الطلا، ولد الهدى، نهج البردة، السودان، النيل". كَانَتْ تَعْتَز بغِناء القَصيدَة العَرَبية، والقَصيدَة الدينية تَحْديداً، تَجدُ في القَصيدة أَساس الغنَاء العَرَبي مُنْذُ أَكْثَر من ثَلاثة آلاف عَامٍ. غَنَّت من أَلْحان السُنْباطي أيْضاً تَرْجَمَة أحمد رامي لرُباعِيات الخَيَّام (١٩٤٩).



- وغَنَّت أُمْ كُلْثوم للسُنْباطي – فيما بَعد – "الأَطْلال، وأراك عصى الدمع"، وغنت "دليلي احتار، يا ظالمني، لسه فاكر، هجرتك، شمس الأصيل، أروح لمين، سهران"، وغيرها..

أسْقَطَ صوْتها ما بَيْن الأقْطارِ العَرَبيةِ من حُدودٍ وحواجِز، يَتَجَمَّعون حَوْل المِذْياع لَيْلَة الخَميس الأول مِن كُلِ شهْرٍ، يُنْصِتون إلى أُغْنيات حَفْلِها الشَهْري، يُحلِّقون في الأجْواءِ العُلوية السَمَاوية، ويَعيشون الجَمَال في أَبْهىَ لَحَظَاتِه.

سينما قصر النيل في ٦ مارس ١٩٦٤:

الرحْلةُ طويلةٌ، تَخْتَلِفُ في الكَثيرِ بَيْنَ بِدايَتِها، وبَيْنَ مَا تَحْياه أُم كُلْثوم الآن. يَنْتَمي إلى الذكْرَياتِ الجَميلة، ارْتِداء العقَال والبالطو والغنَاء في المَوالِد وأفْراح القُرى، والتَطَلُّع إلى القاهرة كَحُلْمٍ ورْدي جَميل. يَنْتَمي إلى هَذه اللَحَظات ما صَنَعَته الإرادة، والحِرص على الإجادة والإضافة، وتَقْديم ما يتَفق مَع روح العَصْر. أضَافَت إلى فِرْقَتها الموسيقية آلات جَديدة مثْل الساكسفون والكلارينيت والأُورْج والأجْهِزة الإلِكْترونية الأُخْرى..

رغْمَ ابْتِعاد السنَوات عَن المَرَّة الأُولى التي وَقَفَت فيها أَمام الجُمهور، فإنَها ظَلَّت تُعاني القَلَق قَبْلَ مَوُعِد الحَفْل، تُشاهِدُ الجُمْهور مِن وَرَاءِ الستَار، تَقْرأ ما يُسْعِفُها بِه ذِهْنها مِن آيات القُرآنِ الكَريمِ، والأَدْعية.





عَزَفَت الفرْقَةُ المُقَدمَة الموسيقية، ثُم انْطَلَق صَوْتُ أُم كُلْثوم يُحلِّقُ بِوجدْانِ العرَب، لَيْسَ في قَاعَةِ السينما وَحْدَها، ولا في المُدُنِ والقُرى المِصْرية فقَط، وإنَما في كُلِ الأَقْطارِ التي تَعْرفُ العَرَبية، حتى البلاد التي تُقيمُ فيها جاليات عَرَبية. أعْطى الجَميع أَنْفُسهم للصوْتِ المَلائكي، يُغَني كَلمات أحمد شَفيق كامل، ولَحْن محمد عبد الوهاب: "أَنْتَ عُمْري".

أُم كُلْثوم هى مُعْجزَة العَصْرِ بَيْنَ المُطْربين والمُلَّحنين. وكَان طَبيعياً أن يُسَّمي النُقَّاد والجُمهور لِقاء أُم كُلْثوم وعبد الوَهاب: "لِقاء السَحَاب"!

اِعتُبِرَت الأُغْنية – في اليومِ التالي – أُغْنيةِ العامِ، لا لأنَها لِقاء القِمَّة كَمَا سُميَّت، وإنَّما لامْتِزاج الكَلمات الرَقيقة، واللَّحْن المُعَبِّر، والصَوْت المَلائكي..

ظَلَّت بَعْدَ أَن غَنَّت لأحمد شَفيق كامل وعَبْد الوَهاب صَديقة وَفَّية لِكُل مَنْ رافقوها في رِحْلَتها الفَنّية الطَويلة: ذِكْرَى الشَيخ أبو العِلا محمد وداود حُسني وفريد غصن

وأحمد صَبْري وإبراهيم ناجي، فهي تَذْكُرُهُم في أحاديثِها وحِوارَاتها الصَحَفيّة، وتَحْرِصُ عَلى صَداقَة الشَيْخ زكرّيا أحمد ورياض السُنباطي وأحمد رامي وبيرمِ التونسي وغيرهم ممَن أطْرَبَت الناس بِكَلِماتِهم وأَلْحَانِهم، وحتى بَعد أن غَنَّت لأجْيال تالية مِنْ المُؤلفين وأجْيال من المُلَحنين، فإن سِلْسِلَة الصدَاَقات الفَنِّية والإنْسانِية ظَلَّت قائمة..

مسرح الأوليمبيا في ١٩٦٨:

أُم كُلْثوم تُغَني عَلى المسْرَح الشَهير لِصالح المَجْهود الحَرْبي المِصْري. في يَدِها المِنْديل الحَريري الذي أَصْبَح سِمةً مُميزة لَها. تومِضُ في ذاكرتها مَوَاقف عاشَتْها في أَوْقات الأَزَمات التي واجَهَتْها مِصْر: طَلَب أَفْراد الجَيْش المِصْري في فِلَسطين عام ١٩٤٨ أَن تُغَني لَهُم.



أَلْغَت الأُغْنية التي كانَت قَدْ أَزْمَعَت غِنَائَها لِتُغَني ما طَلَبه أَبْناء القُوات المُسلَّحة. ظَلَّت داخِل استديوهات الإِذاعَة المُظْلِمة في عُدْوان ١٩٥٦، تُغَني عَلى ضَوْء الشُموع للمَعْرَكة التي فُرِضَت عَلى مِصرْ بِواسِطة قُوات ثَلاث دُوَل. ها هى الآن تَرْأَس تَجَمُّعاً وَطَنياً في أَعْقَاب نَكْسَة ١٩٦٧، مُهِمَته تَعْبِئة المَشَاعِر والتَبَرُعات مِن أَجْلِ صُمُود مِصْر.

ظَلَّ الجُمْهور يُصَفِّق لأُم كُلْثوم، بَعْد أَنْ قَدمَت فَقَرات حَفْلها الغِنائي عَلى المسْرَح الشَهير. تُضيف إلى الأَلْحان - عِنْد إِعَادة كُل مَقْطَع - زَخَارِف وابْتِكارات، وتَلْوينات صَوْتية، وتُغَيِّر نَوْعية صَوْتها، دون أن يَحُولَ ذَلِكَ بينها وبَيْن النُطْق الصَحيح.

سينما قصر النيل:

أُم كُلْثوم عَلى مسْرَحِ السينما، بَعْدَ أن ضاقَ مسْرَح حَديقة الأَزْبَكية بِالأَعْداد الهائلة التي تُقْبِلُ لسِمَاعِها مِن كُل أَقْطارِ العَالَم العَرَبي. انْعَكَس احْترامها لِنَفْسها، لِفَنها، على احْترام الجُمْهور الذي يَحْضر الحفَلات، يَجْمَعْهُم حُبُ الصَوْت المَلائكي، بَعْضُهم يُعِدُّ نَفْسَه للحَفْلِ بَعْدَ انْتِهاءِ الحَفْلِ الذي سَبَقَه، وبَعْضُهُم يَأتي مِن مُدُنٍ بَعيدة، يُعَبِّرون عَن نَفَاذِ "طَرَب" أُم كُلْثوم إلى وِجْدانهم بِتَصْفيقٍ يَعْقُبُ كُل مقْطَع، أو آهَة اسْتِحْسان للتَبْديل الذي تُحْدِثه عِند إِعادَة غِنَاء المَقْطَع، لَكِن الصَمْت الذي لا يُخْدِشه أي صَوْت في أَثْناء الغِنَاء، لا يَصْحب أداءها التَصْفيق أو العِبارات المُعْجبة. إنهم قَدموا لِسَماع كَوكَب الشَرْقِ، وهو ما يَفْرِضُ عَدَم التَجَاوز أو الصَخب، في إِظْهار الإِعْجاب.

تَحولَّ حَفْلها الشَهْري إلى أُمْسية عائلية، أو سَهْرة أصْدقاء، يَجْتَمعون حَوْل حُبِ صَوْتِ أُم كُلْثوم، حتى في أَعْماق القُرى، وفي الكُفور، وفي خَلاءِ البادية، وداخل خِيام الصَحْراء. يَلْتقي الجَميع لِسَماع فَقَرات الحَفْل الذي يُعِدّون أنْفُسهم له مُنْذُ نِهاية الحَفْل الذى يَسْبِقه. حتى الصُحُف ووَسائل الإعْلام كان الكَثير من مَوادها يقْتَصِر يَوْم حَفْل أُم كُلْثوم عَلى نُصوص الأُغْنيات التى تُمَثِّل فَقَرات الحَفْل، وعلَى تَراجِم لِلمؤلفين والمُلَّحنين، وظُروف تَأليف الأُغْنية، والثَوْب الذي تَرْتَديه أُم كُلْثوم. كُلُ ما يَتَّصِلُ بالحَفل تعْنى بِه الصُحُف وَوَسائل الإعْلام، لأنَها تُدْرِك جَيْداً أن ذَلك هو ما يُهِم مُحبِّي صَوْت أُم كُلْثوم، وهُم الغالِبية العُظْمى مِن أَبْناء الشَعْب العَرَبي.

أَضافَت أُم كُلْثوم إرادَتها إلى حُب الناس. ظَلَّت تُغَني، وتُغَني، وتُسْعِد وِجْدان العَرَب بالكَلِمات البَليغة، والأَلْحان المُعَبِّرة، والأداء الذى ينْقِل الآذان إلى أَجْواءٍ عُلْوِيِّة. . حَتى آخِر العُمْر.



هل تريد أن تعرف أكثر؟

- اسمها بالكامل أُم كُلْثوم إبراهيم، وهو ما قالته في ذكرياتها للزميل الصحفي محمود عوض. وقد أخطأ بعض المؤرخين فأطلق عليها اسم أمها فاطمة.
- لم يستقر ميلادها على تاريخ محدد، فهو يتراوح بين ٣١ ديسمبر ١٨٩٨ - كما تذكر بعض الروايات - وهو ١٩٠٤ في روايات أخرى، ومن سياق ترجمة حياتها فإن التاريخ الأول هو الأقرب للدقة.
- مثلت ستة أفلام هي: وداد، نشيد الأمل، دنانير، عايدة، سلامة، فاطمة. وغنَّت أوبريت "رابعة العدوية".
- كانت وراء تأسيس نقابة الموسيقيين، وترأستها لمدة ست سنوات متتالية.
- تزوجت طبيب الأمراض الجلدية الشهير الدكتور حسن الحفناوى في ١٩٥٤.
- أسفر استفتاء أجرته جريدة "لوموند" الفرنسية عن فوز أغنيتها "الأطلال" كواحد من أهم مائة عمل فنى أو أجنبى شكلت ذاكرة القرن العشرين.
- من أهم إسهاماتها الاجتماعية والوطنية، قيامها بجولة فنية في العديد من العواصم العربية والأجنبية - عقب نكسة ١٩٦٧ - لدعم المجهود الحربي المصري.
- من الألقاب التى أطلقت عليها: "كوكب الشرق"، "سيدة الغناء العربى"، "صوت مصر"
- توفيت في الثالث من فبراير ١٩٧٥.

دار البستانى للنشر والتوزيع

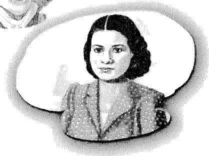
تأسست عام ١٩٠٠

٤ شارع على توفيق شوشة - ١١٣٧١ - مدينة نصر - القاهرة - مصر
هاتف: ٥٩٠٨٠٢٥ (٢٠٢) - ٥٩١٥٣١٥ (٢٠٢) فاكس: ٢٦٢٣٠٨٥ (٢٠٢)
E-mail: boustany@boustanys.com Web-site: www.boustanys.com
رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٩٥٦٤ الترقيم الدولى: ISBN 977-5383-58-7



دار البستاني للنشر والتوزيع الحائزة على جائزة سوزان مبارك
كأفضل ناشر فى أدب الطفل لعام ٢٠٠٢
عن سلسلة «إقرأ معنا» للأطفال.





«رواد ورائدات» سلسلة جديدة تهدف إلى تقديم شخصيات مصرية وعربية كان لها الريادة فى الفن والأدب والسياسة والاقتصاد والاجتماع و العلوم إلخ ..

تقدّم هذه الشخصيات وعطاؤها فى قالب متميز ومختلف حتى يتمكن الطفل فى مدارسنا من الوقوف على ملامح الشخصية والاقتراب من عالمها الفكرى ..

تواصل الماضى مع الحاضر لاستشراف مستقبل أفضل لوطننا العربى.

صدر منها:

رفاعه الطهطاوى

قاسم أمين

أم كلثوم

طلعت حرب

أحمد زويل



دار البستانى للنشر والتوزيع

تأسست عام ١٩